وكان البطريق قسطنطين على ثغرٍ من تلك الثغور التي تُشرف على الخليج مما يلي القسطنطينية، ما يزال يستقبل كل صيفٍ غُزاة من العرب يُناوشهم ويُناوشونه، فينال منهم حينًا وينالون منه، ويصيب منهم أسرى وقتلى ويصيبون، وكان له عند العرب تِرَات[٤] وتاريخ بعيد، وقد اصطنع في الحرب خُطة عربية، فهو يخرج إلى لقائهم — حين يخرج — ومعه نساؤه وراء الصفوف، يهزِجْنَ بالأغاني للتحميس، ويضربن الفارِّين في وجوههم بالعُمُد، أو يَحصِبنَهم بالحصى؛ ليردُدنَهم إلى الحرب،[٥] وقد أيقن قُسطنطين البطريق أنه إلَّا يدفع عن نفسه وعن ثغره، فلن يدفع عنه أحدٌ من الروم الذين توزَّعَتْهُم المطامع، وفَتَّ في أعضادهم ما لَقُوا من الهزائم المتوالية في حرب العرب، وعلى هذا اليقين رابَطَ في ذلك الثغر مدافعًا شديد العزم والقوة سنين طويلة.

وفجأتهم ذات مساءٍ سَريَّةٌ من سرايا العرب،[٦] قد هبطت في جُنْح الليل على الساحِل، ثم أوغلت حتى طرقت القومَ في بيوتهم على حين غفلة، فأعجلتهم عن أخذ الأهبة، والتحموا أجسادًا لأجساد، يتجالدون بالسيوف أو يتصارعون بالأيدي، لا يكادون يتعارفون في ظلام الليل إلَّا بالتكبير والتلبية،[٧] وكان شعار المسلمين يومئذٍ: الله أكبر، لبيك أبا أيوب.

ووقف قسطنطين في وسط الملحمة يرطن بالروميَّة، وهو يُجيل سيفًا في يمينه، له في الظلام بريقٌ يُومض، وبَصُرَ به النعمانُ بن عبيد الله في غَبْشة الليل ولم يَكَدْ، فنَهَدَ إليه وهو يقول وسيفهُ في يده: إني لأرجو أنْ أبرَّ بك قسمي — أيُّها البطريق — فأثأر لأخي أو أنال الشهادة.

ثم عطف عليه بالسيف، فأفلت منه قسطنطينُ واحتَوَشَتْه داره،[٨] واقتحم النعمان وراءه، فتهارب الصبيانُ والنساء بين يديه ولم ينل منالًا.

وتشتَّت شملُ أصحاب قسطنطين، وذهبوا في الأرض فارِّين لا يَلوُون على شيء، قد خلَّفوا متاعهم وسلاحهم، وتخلَّف عنهم بعضُ النساء والصبيان، فسيقوا إلى مَضْرِب

---

[٤] الترات: جمع ترة، وهي الثأر.

[٥] كان لنساء العرب مشاركة في الحرب، بالغناء للرجال لتحميسهن، وقذف المهزومين منهم بالحجارة أو ضربهم بالعصي.

[٦] فرقة من فِرَق المحاربين.

[٧] التكبير: الله أكبر، والتلبية: لبيك لبيك.

[٨] احتوشته داره: حاشته، حفظته ومنعت عنه العدو.